Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

شخصية الأمير عبد القادر الجزائري في رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج

The personality of Algerian prince Abdel Kader in the prince novel by waciny Laredj

بوهلالة أمحمد، Bouhellala Mhamed

1 دكتوراه علوم، المدرسة العليا للأساتذة بشار، قسم اللغة العربية، مخبر رعاية الابتكار والمؤسسة الناشئة لخريجي التعليم العالي.

Ph.D. of Science, High School of Professors Bashar, Department of Arabic Language, Innovation Sponsorship Laboratory and Startup Institution for Higher Education Graduates.
mhammed.bouhellala@ens.univ-bechar.dz

د. بوهلالة أمحمد (Bouhellala Mhamed) الإيميل: mhamedbouhlala@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021-08-12 تاريخ القبول : 2022-04-01

ملخص:

يعدُّ مفهوم الشخصيّة من المفاهيم التي تجاذبتها أطراف ومجالات معرفية مختلفة منها علم الاجتماع وعلم النفس والأدب، ولم يكن الاهتمام في العصور الأولى منصبًّا حول مفهوم الشخصيّة كما هو عليه الحال اليوم، لإنَّ دورها كان هامشيا مقارنة بالحدث، فالحدث هو البعد الوحيد الذي تقوم عليه مقومات وسيرورة الحكي وهو ما يجعل منها أيقونة حاملة لمواصفات وموضوع وتجربة إنسانية تتجلى تدريجيا عبر مسارات الحوار والقراءة. يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الكيفية التي وظَّف بها واسيني الأعرج شخصيّة الأمير عبد القادر في رواية كتاب الأمير وما هي الدلالات والرسائل التي أراد بعثها.

الكلمات المفتاحية: الشخصية؛ المفهوم؛ التوظيف؛ الرواية؛ الأمير.

Abstract:

The personality is one of the concepts that have been attracted by different parties and fields of knowledge, including sociology, psychology and literature. And the contributes to the development of events through its verbal or behavioral act within a specific temporal and spatial framework, which makes it an icon bearing specifications, a subject and a human experience that gradually manifests through the paths of dialogue and reading. The research aims to reveal how Waciny laredj employed the character of Prince Abdul Qader in the narration of The Prince's Book and what are the indications and messages he wanted to send?

Keywords: personality. concept. exploitation. novel. Prince

مقدمة:

تعدّ الشخصيّة واحدة من الركائز المهمة التي يعتمدها المؤلف في رسم معالم بناءه السردي للخطاب الروائي أو الحكي بصفة عامة، لأنها تُسهم في تطوُّر الأحداث من خلال قيامها بالفعل اللّفظي أو السلوكي في إطار زماني ومكاني معيَّن. والشخصية في السرد الروائي هي وسيلة الكاتب للتعبير عن أفكاره المباشرة وأفكاره الخفية في صور تتعدّد فيها الأصوات وتتعارض الحوارات. نحاول في هذا البحث الكشف عن تجليات الشخصيّة في الخطاب الروائي، ونتجه في هذا الجزء إلى مساءلة واسيني الأعرج عن توظيفه لشخصيّة الأمير عبد القادر بن محي الدين في روايته كتاب الأمير ساعين إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات تتمثَّل في: ماذا تُمثّل الشخصيّة؟ وما هي أبعادها؟ وكيف اتصلت بالأدوار التي حدّدها لها السارد في المتن الروائي؟ وهل انطلق الكاتب في تحديد ملامح الشخصيّة من التاريخ الواقعي المعيش أم من المتخيّل الذاتي؟ ثم سبر أغوار هذه الشخصيّة من نواحي متعدّدة؛ منها الاجتماعية والنفسية والأخلاقية والإيديولوجية والعسكرية. فمن المؤكَّد أنَّه تمَّ توظيف هذه الشخصيّة الفذَّة في أعمال عربية وغربية عديدة منها من تناولت حياة الأمير عبد القادر في شكل كتب السيرة، ومنها أيضا بعض الكتب النقدية التي تناولت مآثر الرجل الفكرية والعسكرية، ومنها بعض الروايات التي وظفَّت اسم الأمير بوصفه شخصيّة أو تيمة في بناءها السردي. ولمقاربة هذا المنجز الأدبي تطبيقيا نعتمد منهجا بنيويا بما يمتلكه من أدوات إجرائية في الوصف والتحليل.

المحور الأول: تحوّلات مفهوم الشخصيّة

عرفت المراحل الأولى من ظهور مفهوم الشخصيّة بمرحلة التأسيس، ذلك أنَّ النقد اليوناني أولى الأهميّة للأحداث في

العمل الأدبيّ، ولم ير الشخصيّة إلّا تابعا لتلك الأحداث. كان البطل لدى الإغريق يمثل الصورة النموذجية من خلال الأفعال النبيلة المسندة إليه ويسعى في الحروب بطلا من اتسّم بالشجاعة والقوّة،« وميَّز أرسطو بين البطل الدرامي والبطل التراجيدي من خلال وصف أفعاله»[1]، وقد أدَّت هذه النظرة إلى تحكُّم طبيعة الأحداث في رسم الشخصيّة «فعُدَّت الشخصيّة ثانوية بالقياس إلى باقي عناصر العمل التخييلي، أي خاضعة خضوعا تامًا لمفهوم الحدث»[2]. المأساة لم تحاك عملا من أجل تصوير الشخصيّة بل تضمَّنت من خلال محاكاة للأحداث محاكاة للشخصيّة ولصفاتها الأخلاقية، وما تعبّر عنه هذه الشخصيّة من حقائق. ولم تستقل الشخصيّة عن الحدث وتتخلص منه إلّا في القرن التاسع عشر.

تقلصت تبعية الشخصيّة للحدث في القرن التاسع عشر وأصبحت تتمتّع بحضورها المستقل ونظامها الخاص لأنَّها أضحت وعاء ومرجعا يستقطب كثيرا من الدلالات والرموز والموضوعات. وهذا التحوّل في مفهوم الشخصيّة ومضمونها كان وليدا لتحوّلات العصر وناموس التطوّر، فظهر أثره بالضرورة في مجالات الفنّ والأدب وصياغة الأفكار.

يرى فيليب هامون:« أنَّ الشخصيّة أشمل من كونها شخصا إنسانيا، فقد تكون مجردّة كالعقل أو المنصب أو المادة»[3]، وهناك من يعرِّف الشخصيّة بالنظر إلى علاقتها بالنّص، لأنَّها تمثّل حصيلة معطيات وعلاقات متشابكة في النّص «فهناك من ربطها بالكاتب الذي ظلّ في بعض تجربته في حال كمون»[4]، فنجد الباحثين يستكشفون أعماق الشخصيات من داخل النّص ومن خارجه، ومن خلال علاقتها بالمؤلف بوصفه يشترك معها، بكونهما كائنا بشريا.

إنَّ مفهوم الشخصيّة من المفاهيم الأساسية في بناء النّص الروائي، ولعله دخل في النقد الأدبي الحديث من بوابة علم النفس، عندما ظهرت دراسات تحاول تفسير الأدب تفسيرا نفسيًّا. والساحة الأدبية ثريّة بالدراسات التي تعتمد المنهج النفسي وسيلة لها، لكشف خبايا الشخصيّة. فقد تعبّر الشخصيّة في الخطاب الروائي عن مكنوناتها الخاصة، كما يمكنها أن تحاكي شخصيّة المؤلف أو جزء منها، فتكون الشخصيّة في بعض الروايات ظل الكاتب الخفي، التي يعبِّر من خلالها عن مشاعره وعن أفكاره وتوجهاته. يُعرِّف رولان بارت الشخصيّة:« إنَّها كائنات من ورق تتخذ شكلا دالا من خلال اللّغة»[5]، وحقيقة الأمر إنَّ الشخصيّة الروائية ليست وجودا واقعيا، بل هي انعكاس للنفس البشرية ومفهوم تخييلي، تُجسده اللّغة من خلال الرموز والتعبيرات والأسماء المستخدمة في الرواية.

قدَّم الباحثون في مجال الرواية، من أمثال ميخائيل باختين وجورج لوكاش وغولدمان تصوراتهم في محاولة لمقاربة مفهوم الشخصيّة. فيرى ميخائيل باختين على سبيل المثال:« إنَّه ليس الوجود المعطى للشخصيّة، ولا صورتها المعدّة بصرامة هو ما يجب الكشف عنه وتحديده، وإنَّما وعي البطل وإدراكه لذاته، أو بعبارة أخرى بكلمته الأخيرة حول العالم وحول نفسه»[6]، وهذا يعني أنَّ باختين انتقل من تَصوُّره للبطل كشخصيّة سيكولوجية إلى تصوُّر البطل، وهو يعبّر عن وجهة نظر ورؤية للعالم. ويعدُّ آلان روب غريي أيضا من الباحثين الذين اهتموا بدراسة الشخصيّة فهو يميّز الروائي بقوله:« الروائي الحقيقي هو ذلك الذي يخلق الشخصيات»[7]، ولعله يقصد بذلك القدرة على توظيف ما تحمله الشخصيات من خصائص نفسية اجتماعية وإيديولوجية متباينة.

رسم المؤلف معالم الشخصيات في روايته كتاب الأمير، وحدّد مواصفاتها الداخلية والخارجية، وجعلها تعبِّر عن عواطفها وأفكارها ومواقفها. إنَّ مغامرة الكاتب في خوض غمار شخصيّة الأمير عبد القادر تجربة تستحقّ كل الاهتمام، لأنَّها تقف عند حافة التاريخ وتغوص في المتخيّل، فهي لا تقول التاريخ ولا تتقصى الأحداث، والوقائع لاختبارها. فذلك ليس من مهامها الأساسية. «والخيال عند الروائي مقدّس والحقيقة مجال للانتهاك، ولابدَّ أنَّ العكس صحيح عند المؤرخ»[8]. يرى بعض النقّاد أنَّ الكاتب لم يكن جادا في وصف بعض الحقائق أو لعله تغاضى عن أشياء من التاريخ، غير أنَّه - في حقيقة الأمر- لم ينتبه أو لم يميّز هؤلاء النقاد بين طبيعة الأصناف والأجناس الأدبية، فالتاريخ تاريخ والأدب أدب. يمكن للباحث في حقل التاريخ بوصفه علما قائما بذاته أن يتصفَّح المصادر والمراجع التي يشتغل عليها في مضمارها، وفي إطارها وجنسها الخاص. وهناك يمكنه أنَّ يتحرى الصحة والدقّة والحقيقة. أمَّا الأديب فيحقّ له توظيف التاريخ توظيفا فنيّا، وهو غير ملزم بعقد الحقيقة التاريخية في رصد وبناء تيماته الفنيّة.

ظهرت العناية بالوظائف التي تقوم بها الشخصيّة مع الباحث الروسي فلاديمير بروب الذي ركزّ على الأفعال التي تقوم بها الشخصيّة في الحكاية، وقد قَلّل من أهمية نوع الشخصيّة وأوصافها وأخلاقها وطبائعها، لكون هذه العناصر متغيّرة في الشخصيّة. أمّا العناصر الثابتة فهي ما تقوم به الشخصيّة من أفعال؛ لذلك ربط الشخصيّة بالدور وبطبيعة هذا الدور، وحصر الشخصيات وفقا لوظائفها إلى:« الشرّير، والمانح، والمساعد والأَميرة والمرسل، والبطل، والبطل المزيف»[9]. ويرى بروب أنَّ كلاً من هذه الشخصيات يمكن تعيينها من خلال الدور الذي تقوم به فالشخصيّة تُحدَّد بالوظيفة التي تُسند إليها وليس بصفاتها. وأشار رولان بارت في كتابه "النقد البنيوي للحكاية" إلى الشخصيّة فاعلاً في النّص القصصي، ولهذا الفاعل وظائف يظهر من خلالها دوره في القصة كما تظهر سماته. يضاف إلى ذلك أنَّ له أعمالا تظهر بواسطتها علاقات الفاعل في ثلاثة محاور هي:« الحب، والتواصل، والمساعدة»[10]. وهذه العلاقات ارتبطت بها دلالة الرغبة والاختيار. ولعلّ هذه العلاقات مستنبطة أساسا من الوظائف التي استخلصها بروب في تحليله للحكاية الخرافية.

تتأسّس الرواية بوصفها منجزًا فنيًّا على سرد أفعال وأحداث في مسار وغاية يهدف الروائي الوصول إليها. غير أنَّه لابدّ لهذه الأحداث من أمكنة وأزمنة تعيش فيها. ولا بدَّ لها من شخصيات تؤديها. لذلك عدَّت الشخصيّة باختلاف أشكالها وغاياتها ورموزها الوسيلة والأداة الفنية التي يستند إليها السارد في بناء الرواية، وتصوير مشاهدها. يسلِّط الكاتب الضوء أوّلا على شخصيّة الأمير بوصفها شخصيّة بطل، ثم البحث عن أهم مواصفاتها من خلال سلوكها ومواقفها تجاه قضايا مختلفة. لقد حفظ الأمير عبد القادر القرآن الكريم ودرس وتلقّى مجموعة من العلوم منها: الفلسفة والفقه والحديث، قرأ صحيح مسلم والبخاري وقام بتدريسهما. حفظ الألفية في النحو وتعلَّم السنوسية والإتقان في علوم القرآن، فكان واسع الاطلاع على العلوم الشرعية والعلوم العقلية والرحلة والمشاهدة. بعد مبايعة الأمير عبد القادر قرأ صك البيعة بتاريخ الثالث من رجب 1248 الموافق لـ: 27 نوفمبر 1832م. وأخذ يؤسِّس لنظام حكم دولة ديمقراطي عادل يحافظ على ممتلكات وحقوق الغير، فأحدث ثورة في نظام الحكم مقتديا بنظام الحكم الإسلامي حيث كانت إدارة شؤون الدولة مبنيّة على قواعد الشورى، وحسن المعاملات في ميادين التسيير السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي. منع الأمير عبد القادر الغارات على المستضعفين وغالبا ما كان يدخل في حالة صمت وتأمُّل وتعبُّد وعزلة فتميَّزت شخصيته بشخصيّة العابد الصوفي، غير أنَّه كان جادا في حكمه، فبعد أن منع الغارات على القبائل العربية، هدّد بالعقوبات الصارمة ضدّ كل من يخترق القانون.

اتسمت شخصيّة الأمير بالزهد فها هو يستشيط غضبا في وجه أخيه مصطفى الذي كان منزعجا من قرار وقف الغارات: «لقد سُدَّت كل أبواب الخير في وجوهنا، وعندما لا تجد القبائل المتحالفة ما تأكله ستأكل رؤوسنا جميعا، منذ مدّة لم يدخلنا أي شيء من الغنائم. ماذا نفعل الآن؟ فيجيب الأمير قائلا: هذاك العهد اللّي كُنَّا فيه نأخذ مال الناس بغير حق، راح. القبائل صارت مِنَّا، من لحمنا، ونحن صرنا منها، أخوة في الخير والشر»[11].

كان الأمير يدعو للسلام والحكمة والأخوة ويدعو إلى التسامح واحترام الآخر شهد له العدو قبل الصديق بالشجاعة والإخلاص، كان الرجل قائدا محنكا خبيرا باستراتيجية الحروب الكلاسيكية ومتطلباتها «الانتصار على الغزاة صعب نحتاج إلى أسلحة حقيقية إلى الماء إلى زراعة مغذية إلى تغيير سلوكياتنا اليومية نفكر كيف نصنع المدافع والأسلحة الحقيقية والسيوف بدل أن نكتفي بالتصليحات. يجب أن نعيد اكتشاف البارود وأن نتخلَّص من البارود القبائلي الأخضر الذي لا ينفجر وإذا انفجر يحرق صاحبه قبل أن يحرق العدو»[12]. على الرغم من شجاعة الأمير والذين معه من المجاهدين المخلصين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، غير أنَّ أحكامه الرزينة وحنكته العسكرية منعته من أن يتَّخذ قرارات غير صائبة أو أن يدفع بنفسه وبأصحابه إلى حرب محسومة نتيجتها قبل أن تبدأ، لأنَّ ميزان القوّة والإمكانات العسكرية من عتاد ووسائل غير متوازنة بين الجبهتين.

اتسمت شخصيّة الأمير بالواقعية كان ينطلق من معطيات الحال ثابت في أحكامه لا تسوقه النزوات أو حب التفاخر. يرُّد على أبيه قائلا: «لا تجعلني اندم يا أبي على إمارة لم أطلبها. حروب المسلمون القدماء لم تعد نافعة. والكلام لم يعد كافيا كُنَّا نظن أنَّنا الأفضل في كل شيء وبدأنا ندرك أنَّ الآخرين صنعوا انفسهم من ضجيجنا الفارغ نحن على حواف قرن

صعب إنَّهم يصنعون المدافع والبنادق والسيوف الحادّة ونحن ما زلنا نراوح في أمكنتنا»[13]. كان الأمير على دراية كبيرة باستراتيجية الحرب الحديثة، وضرورة وجود أسلحة حقيقة قادرة على تحقيق الانتصار بالإضافة لما يمتلكه هؤلاء الفرسان المجاهدين من قوّة إيمان وصبر على المكاره.

الدور الثاني الأكثر أهميّة في الرواية هو الدور الذي أدَّته شخصيّة انطوان ديبوش أسقف الجزائر القس الفرنسي، وهو دور المساعد الذي طالما كانت مواقفه مساندة للأمير في مفاوضاته لتبادل الأسرى. كما تعدّدت مراسلاته الإدارية للحكومة الفرنسية القاضية بحسن معاملة الأمير والمطالبة بتحريره من الأسر. وقد جاء على لسان جون موبي يصف هذه الشخصيّة بقوله: «ارتبط بهذه الأرض فدافع عنها باستماته ودافع عن رجلها الكبير، الأمير مثل الذي يدافع عن كتاب مقدّس، استمات في الدفاع عنه حتى جعل حياته كلها رهن إطلاق سراحه»[14]. يتذكّر هذا الخادم سيّده الذي عاش في أرض الجزائر والذي طلب منه أن يُذرَّ رماده فيها. ومن مواقف الأمير العادلة تأنيبه للسيد ديبوش لأنَّه ألحَّ عليه أن يحرر أحد الأسرى على وجه الخصوص «كان من واجبك أن تطلب منيّ إطلاق سراح كل المساجين المسيحيين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة تافنة وليس سجينا واحدا كائنا من يكون»[15].

خطى ميخائيل باختين خطوة سابقة في فهم الشخصيّة الروائية، فحذر من مغبة المطابقة بين الكاتب وشخصياته، ووصف شخصيّة الكاتب على أنَّها إحدى الشخصيات في نظام الرواية الذي يقوم على تعدّد الأصوات وتعايش مجموعة من الأيديولوجيات «إنَّ الكاتب الحقيقي لا يمكن له أن يتحوَّل إلى شخصيّة فنيّة، لأنَّه خالق لكل شخصيّة أدبيّة، ولكل ما هو فنيّ في عمله الأدبي، ولهذا فإنَّ ما يسمّى بشخصيّة الكاتب يمكن أن يكون واحدة من شخصيات متعدّدة في العمل الأدبي»[16] يرفض باختين أن يكون صوت الكاتب أو رأيه مجسَّدا بشكل واضح، أو غالب في الرواية على بقية الأصوات.

ربط الباحث ألان روب غرييه بين قيمة الفرد في المجتمع البرجوازي في القرن التاسع عشر ومكانة الشخصيّة في العالم الروائي، «وكان مفهومها يتمحوَّر حول علاقة البطل بالعالم ويرجع اهتمام روائيي تلك الفترة بالشخصيّة إلى صعود قيمة الفرد في المجتمع ورغبته في السيادة، فكانت الشخصيّة الروائية دالة على طبقة اجتماعية معيَّنة، كما أصبحت كل عناصر السرد تعمل على إضاءة الشخصيّة، وإعطاءها الحدّ الأقصى من البروز»[17]. فالشخصيّة الأرستقراطية كانت هي الوحيدة المتحكمّة في زمام الأمور، وكانت تمتاز بالخصوصية عن غيرها نظرا للقيّم والتقاليد والنظم الاجتماعية التي عرفتها تلك المرحلة.

ظهرت بعد ذلك مرحلة لاحقة سميَّت بتيار الوعي. وهي التي يقول عنها روبرت همفري:« لا شك أنَّ مؤلفي تيار الوعي كانوا على معرفة ما بنظريات التحليل النفسي، وبنظرية الشخصيّة على نحو مباشرة أو غير مباشرة، ويمكن أن نؤكِّد أنَّ هؤلاء الكتَّاب كانوا متأثرين على نحو واسع بالمفاهيم العامة لعلم النفس»[18]. إلَّا أنَّ الأمر لم ينته عند المعرفة بل حاولوا إسقاط هذه النظريات على الشخصيات الورقية الماثلة أمامهم. وما يعاب عليهم أيضا في هذه المرحلة، هو التوجه إلى صبر أغوار نفسية الشخصيّة كما لو كانت كائنا حقيقيا، وذلك ما أبعدهم أكثر فأكثر عن الفهم الوظيفي لها.

يقول محمد غنيمي هلال في هذا الصدد: «الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية محوّر الأفكار والآراء العامة ... الأشخاص كذلك مصدرهم الواقع»[19]. وتستمـّـد الشخصيّة مكانتها في الرواية، كونها تعكس الواقع الاجتماعي بكل تناقضاته، «وقد ساد الاعتقاد في النقد الغربي طيلة القرن التاسع عشر، الذي عرف ب: (العصر الذهبي للرواية) أنَّ أساس النثر الجيد هو رسم الشخصيات، ولا شيء دون ذلك، ويعدُّ الكاتب الفرنسي بلزاك من أبرز من يمثل مرحلة ازدهار الشخصيّة الروائية، حيث كتب حوالي تسعين رواية، أقحم في نصوصها أكثر من ألفي شخصيّة»[20]. وكأنَّه يحاول أن يرصد كل ما يحدث في المجتمع. فقد يبني الروائي شخوصه انطلاقا من حياته الاجتماعية الخاصة، وأنَّ أبطاله ما هم إلا أقنعة، يروي من ورائها قصته، ويحلم من خلالها بنفسه. أو يحاول من خلالها تمرير رسائل معينة، فهذه الشخصيات التخيلية تبقى مجرَّد كلمات إلَّا أنَّها تؤدي وظيفتها التواصلية. وتتحدِّد المحطَّة الثالثة في تحوّلات مفهوم الشخصيّة، في أعمال "فيليب هامون" وهي المرحلة التي نضجت فيها اللسانيات والنقد البنيوي حيث تمَّ تجريد الشخصيّة من محتواها الدلالي ونقصد بمحتواها الدلالي صفاتها المورفولوجية وأصبح

الاهتمام يتمحوَّر حول وظيفتها النحوية، إذ تعدُّ بمثابة الفاعل في العبارة السردية.

لم يعد الاهتمام منصبًّا حول شكل الشخصيّة أو مستواها الاجتماعي بقدر ما عاد الاهتمام بالدور المنوط بها وتأثيرها، وقد جاء اهتمام جيرار جينيت بالفاعل من خلال وقوفه على جزئيات النّص القصصي من منطلق لغوي، ليُفرِّق بين جانب الفاعل في القص والجانب التأمُّلي في الوصف. فالأوّل يركِّز على الأفعال التي تقوم بها الشخصيّة، ويركِّز الثاني على ذوات الشخصيات. ويُعدُّ الفاعل أساس تغيير الأفعال، إذ بمقتضاه تنتهي القصّة ويمكن إنَّشاء قصّة أخرى، «وأصبحت الشخصيّة علامة لها مظهر لساني تتفكَّك بموجبه إلى دال ومدلول تشبه العلامة اللغوية، وينظر إلى الشخصيّة كمورفيم فارغ سيمتلئ تدريجيا بالدلالة كلَّما تقدَّمنا في قراءة النّص»[21]. ويكون ذلك بتقديم الراوي لها، أو يكون من خلال تحدث الشخصيّة عن نفسها، أو يتعرف عليها القارئ تدريجيا من حيثيات النّص وسياقه أو من خلال وصف شخصيات أخرى لها. عرض فيليب هامون مفهوم الشخصيّة من عدَّة جوانب، مؤكدًا إنَّ الشخصيّة هي إعادة بناء للنص يقوم به القارئ. يمكن للشخصيّة إنَّ تنزاح دلاليا فتصبح أشمَّل من كونها شخصًا إنسانيا، فقد تكون مجرّدة كالعقل أو المنصب أو المادة... وبهذا تكون الشخصيّة علامة ضمن نسق النّص، فتُقسَّم العلامة بوصفها نشاطًا معينا إلى دال يشمل السمات، وإلى مدلول يتعلق بالمعنى. ويتضح المعنى من خلال علاقات التشابه والتقابل، والقرابة، والمستوى التي تربطها بالشخصيات الأخرى، وببقية عناصر السرد، سواء من داخل النّص أم من خارجه.

المحور الثاني تصنيف الشخصيات:

صنف "فيليب هامون" الشخصيات إلى ثلاث فئات[22]:

أولا: فئة الشخصيات المرجعية: وقسمها إلى الأصناف التالية:

- الشخصيات التاريخية: وتعدُّ كل شخصيات الرواية شخصيات تاريخية لإنَّ الرواية تستمد مقوماتها التخييلية من التاريخ.

- الشخصيات الاجتماعية كالبطل (الأمير عبد القادر) والفارس(المجاهدين) والمسئول (ضباط وقادة الاستعمار الفرنسي).

- الشخصيات الأسطورية أو الرمزية مثل:(فينوس، زوس) وفي الرواية نجد سيدي عبد القادر الجيلالي.

- الشخصيات المجازية كالحب، الكراهية.

ثانيا: الشخصيات الواصلة

وتكون علامات على حضور المؤلف، أو القارئ، أو من ينوب عنهما في النّص. والكاتب قد يكون حاضرا خلف ضمير الغائب(هو) أو ضمير المتكلم(إنَّا).

ثالثا: الشخصيات الاستذكارية(المتكررة):

«يتمُّ فهمها بالرجوع وجوبا للنسق الخاص بالمؤلف لما تقيمه في الملفوظ من شبكة نداءات، وتذكارات مع مقاطع ملفوظية أخرى منفصلة، وهي عناصر لها وظيفة تنظيمية وتلميحية بالأساس، وبواسطتها يتمكن المؤلف من إنَّ يحكي نفسه بنفسه»[23]. والشخصيات الاستذكاريّة تعدُّ إما جملة أو كلمة أو فقرة، تكون وظيفتها تنظيمية وترابطية «وتمثل هذه الشخصيات علامة لشحذ ذاكرة القارئ، مثل الحلم والاعتراف والتمني والتكهّن، والاستشهاد بالأسلاف، وغير ذلك من العناصر والصور التي تمثِّل شخصيّة لها ذاكرة من خلال إثارتها للقارئ»[24]. ونجد واسيني الأعرج يستذكر شخصيّة دون كيشوت دي لامانشا للروائي سيرفانتس في كتاباته الروائية وهو «نص يعكس أكثر من مستوى لغوي في الكتابة وفي التناول والمعالجة... دون كيشوت جاء ليعكس واقعا أو ليجعلنا نكتشفه، أو يكون سببا في تحوُّل لغوي وإنَّشاء فكري يحارب ثقافة النسيان والإهمال والتنَّكر للقيم الفنيّة الإنسانية»[25]. ظهرت هذه الشخصيّة بشكل متكرر وعلى الرغم من كونها شخصيّة تخييلية إلّا أنهَّا تؤدي وظيفة الانزياح في تحفيز شعرية التلقّي، وذلك لما تحمله من مفارقات دلالية وحوارية بين الحلم والواقع، وبين العقل والجنون، ولما تحمله أيضا من تصور للعالم والحياة. وبمثل هذا التوظيف يمكن لشعرية الشخصيّة أن تتحقق عندما تجسد بعدها الفنّي والرمزي في سياقها الأدبي.

إذا كان التصنيف السابق يصنف الشخصيّة اعتمادا على أساس ثنائية الدال والمدلول أو على اعتبار الشخصيّة علامة سيميائية فلا يجب أن يغيب عنا أنَّ هذه العلامات «يمكن تصنيفها انطلاقا من نوعيتها أو طبيعتها، فمن حيث طبيعتها هناك مميزات ثابتة هي الأسماء وأخرى متطورة كالأحوال الاجتماعية والنفسية، أمّا من حيث نوعيتها فتصنف على أساس مميزاتها الفيزيقية(صفاتها الجسمية) والنفسية»[26]. فأوَّل تصنيف يقوم على مقابلة الشخصيات الرئيسية بالشخصيات الثانوية، يمكن للشخصيات أن تكون رئيسية ووظيفتها أساسية، مثل البطل وخصومه. ففي رواية كتاب الأمير نجد شخصيتين رئيسيتين هما شخصيّة الأمير عبد القادر بن محي الدين وشخصيّة السيد ديبوش.

يحتضن السرد شخصيات ثانوية وتكون لهذه الشخصيات أدوار مرحلية، غير أنَّ سيرورة السرد لا يمكنها الاستغناء عن هذه الأدوار. وهناك تصنيف شكلي آخر، يقسِّم الشخصيات إلى شخصيّة ثابتة مسطحة وأخرى دينامية درامية، وهو معيار للتفريق بين الشخصيات التي تبقى غير متغيِّرة على طول المحكي عن تلك التي تتغيَّر. والشخصيات الثانوية، أو المسطحة قد تدلوا بدلوها في بعض الحوارات القصيرة التي تتخلل السرد، مثل الحوارات التي دارت تحت قبة البرلمان لمناقشة مصير الأمير. فمن بين هؤلاء السياسيين الحضور من ساند الأمير في موقفه وكان منصفا. ومنهم من اتخذ منه موقفا عدائيا. فبعد المحاولات المضنية استطاع السيد ديبوش والسيد دولاموريسيير بمساندة صاحب السمو الملكي حاكم الجزائر الدوق دومال أن يقنع المجلس بفتح ملف سلطان الجزائر عبد القادر فتدَّخل أثناء الاجتماع بعض الحضور وطلبوا من فرنـــسا أن توفي بوعودها، تدخَّل بيلي دولا لوزيـــر قائلا:" فرنسا قطعت وعدها وعليها أن تجد حلًّا، الأمر يتعلّق بشرف الأمّة والسلطان، هذا الرجل أُعطِي وعدًا مكتوبًا»[27]. غير أنَّ فرنسا لم تف بوعودها.

في خضم الحوار المتبادل بين أعضاء المجلس والحضور جاء موقف: ميريو والبرانس دولا موسكوفا ولارو شجكلان منصفا للأمير عبد القادر، كما شهد له الكولونيل أوجين دوماس بالتفاني وحسن المعاملة عندما قال: «ستجده اليوم أكبر وأكثر إدهاشا في نقاشاته، لا يطلب الشيء الكثير من الدنيا، ولا يشتكي أبدا... ما قام به تجاه الآخرين لا يمكن إنَّ يقوم به إلَّا رجل عظيم»[28] أمَّا الجنرال ماربو فوقف موقفا معاديا للأمير واتهمه بقتل المساجين.

تعدُّ شخصيّة جون موبي شخصيّة ثانوية في الرواية، غير أنَّه يمكن لأيّ شخصيّة أن تحمل فكرة عميقة وهادفة حتى ولو كانت هذه الشخصيّة تتخلل بعض مشاهد الرواية الثانوية. يحاور جون سيده قائلا:« المصالح الصغرى تعمي الناس يا مونسينيور، الكثير من الضباط مرتاحون ولا يريدون تشويشا على ترقياتهم، و لهذا فهم في الكثير من الأحيان يظهرون غير ما يخفون»[29]. فالشهادة بالحقّ وخاصة إذا كانت لصالح الأمير، ليست من أولوياتهم ولا تخدم مصالحهم الشخصيّة. فهذه الفكرة الصغيرة عظيمة الأثر، المصلحة الشخصيّة تقف عائقا كبيرا أمام تقدُّم الأمم والمجتمعات، كما أنَّ هذه الفكرة صالحة لكل زمان ومكان.

وإذا تساءلنا حول موضوع الحقيقة الذي اعتمده المؤلف في إنَّجازه لهذه الرواية؟ هل هي حقيقة تاريخية مستمدَّة فعلا من حياة الأمير وكفاحه؟ أم هي مزيج بين الواقع التاريخي وبعض شطحات الخيال؟ يحق للقارئ أن يحدِّد الوجهة القرائية التي يرتضيها في التمييز بين الخطاب التاريخي في مجاله الخصب، والخطاب الأدبي الذي يحمل مآثر من التاريخ. ففي حقل الدراسة التاريخية من الضروري التحقيق في الأحداث والشخصيات والمواقف، أمَّا فيما يتعلق بقراءة الخطاب الأدبي المشحون والذي يستمد من الشخصيات التاريخية مواقف توجّه التجربة والرؤيا الإنسانية، فعلى القارئ أن يتوخى الحذر، وينتبه للوظيفة التخييلية التي تعيد صياغة المواقف القديمة بما يناسب الواقع. كما يحقُّ لهذا القارئ أيضا في مرحلة لاحقة أن يميّز بين الزيف والواقع التاريخي، من خلال البحث في الأصول والبيانات والأدلة، دون التعريض لفنيّات الكتابة الأدبية.

خاتمة:

يمتلك كل مبدع وفنان مخزونه الفكري وأسلوبه التعبيري في نقل تجربته الإنسانية، كما يمتلك كل قارئ وجهة خاصة في قراءة وتحليل الخطاب الأدبي. ويبقى الخطاب الروائي بما يمتلكه من تقنيات وعناصر للسرد أفقا واسعا لا تحده حدود المنهج أو الموضوعات والمضامين. ولا يتوقف السرد عن خلق نص جديد حتى يؤسس لنص آخر متعال عليه.

تختلف القراءة النقدية والأدبية لشخصية الأمير عبد القادر باختلاف المكونات الادراكية للقارئ. ولقد تناول البحث مفاهيم الشخصية بالتعريج على بعض جهود ثلة من الشكلانيين الروس مثل فلاديمير بروب وميخائيل باختين وجهود ألان روب غريي من خلال علاقة البطل بالعالم ومن ثمّة الإشارة إلى مرحلة تيار الوعي والغوص في البعد النفسي للشخصية. وفي المرحلة الثالثة والأخيرة برزت جهود الباحثين في حقل اللسانيات الحديثة فقد ادلوا بدلوهم في ميدان نقد الشخصية وتحليلها، ومنهم: فيليب هامون وجيرار جينيت.

لقد وظف واسيني الأعرج شخصية الأمير عبد القادر توظيفا فنيا وجماليا بوصفها أيقونة ورمزا ليسلط الضوء على قضايا مهمّة منها أهمية الحوار الايديولوجي بين الشمال والجنوب وابراز الفكر الإسلامي الإنساني والحضاري من خلال سلوك ومعاملات الأمير عبد القادر لأصحابه وأعداءه. يقين وإيمان الأمير الصوفي بالعقيدة الاسلامية السمحاء راسخ في التعامل مع العدو قبل الصديق، لقد قام المؤلف بنقل التجربة الانسانية التي عاشها الأمير عبد القادر والتي نستشفها بين الأدوار وبين الحوارات في سياقات مختلفة، وهي التي تعكس بعض الإيحاءات والمضامين غير المباشرة. لقد عبّرت شخصية الأمير في حواراتها الايديولوجية عن نفسها وعن محيطها بشكل من السلاسة والمرونة يستشفها القارئ من خلال جمالية تصوير المشاهد التخييلية.

قائمة المراجع:

[1] أرسطو طاليس، (دت) فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ص36.

[2] حسن بحراوي، 1990م، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن الشخصية)، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص208.

[3] فيليب هامون، 1983م، سيميولوجيا الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، تقديم فتح الله كليتو، ص:26/24

[4] هنري برجسون، 1983م، الضحك، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، ص130.

[5] رولان بارت، 1993م، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة منذر عيش، مركز الإنَّماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، ط1، حلب، سوريا، ص72.

[6] حسن بحراوي، 1990م، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ص201.

[7] آلان روب غربي، (دت)، نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى، سلسلة دراسات في الآداب الأجنبية، دار المعارف مصر، ص64.

[8] طارق علي، 2005م، تأملات في الرواية والتاريخ، (دط)، دار الكتب القطرية، ص30.

[9] فلاديمير بروب، 1989م، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة: أبو بكر باقادر وأحمد نصر، النادي الأدبي، جدة، ص158.

[10] رولان بارت، 1988م، النقد البنيوي للحكاية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، ص124.

[11] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص78.

[12] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص78.

[13] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص79.

[14] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص15.

[15] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص47.

[16] ميخائيل باختين، 1985م، حول منهجية علم الأدب، ترجمة: زهير ياسين الشليبة، مجلة المعرفة العدد 281، ص107.

[17] آلان روب غربيه، (دت)، نحو رواية جديدة – ترجمة مصطفى إبراهيم دار المعارف، مصر- ص36.

[18] همغري روبرت، 1975م، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة: محمود الربيعي، ط2، دار المعارف مصر، ص26.

[19] محمد غنيمي هلال، 1982م، النقد الأدبي الحديث، ط1، دار العودة، بيروت، ص562.

[20] عبد المالك مرتاض، 1998م، نظرية الرواية، سلسلة عالم المعرفة، عدد 240، ديسمبر، الكويت، ص104.

[21] حميد لحميداني، 1991م، بنية النّص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص51.

[22] فيليب هامون، 1990م، سيميولوجيا الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بن كراد، دار الكلام، (د، ط)، الرباط، المغرب، ص:26/24

[23] عبد العالي بوطيب، 2004م، الشخصيّة الروائية بين الأمس واليوم، علامات ج 54، ص374.

[24] فيليب هامون، (دت)، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ص25.

[25] تحريشي محمد، المستويات اللغوية في الخطاب السردي عند واسيني الأعرج، مجلة عمان، كانون الثاني، العدد163.

[26] عبد العالي بوطيب، الشخصيّة الروائية بين الأمس واليوم، علامات ج 54، سنة 2004م، ص374.

[27] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص27.

[28] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص42.

[29] واسيني الأعرج، 2010م، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر للطباعة والنشر، الجزائر، ص35.